وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

أثر الإصلاح في بناء الحضارة الإنسانية في ضوء هدايات سورة يوسف -عليه السلام-

اسم الباحث/ـة

د/ محمد يحيى سعد آل منشط

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا البحث يهدف إلى الوقوف على أثر الإصلاح في بناء الحضارة الإنسانية من خلال سورة يوسف عليه السلام، وقد بدأت البحث بمقدمة اشتملت على أهمية البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة ،ومنهج البحث وخطته، ثم قمت بتعريف المصطلحات التي لها تعلق بعنوان البحث، ثم قسّمت البحث إلى ثلاثة مطالب رئيسة، تتعلق بالإصلاح الديني أولاً ثم الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي ثانياً، ثم الإصلاح القيادي والاقتصادي ثالثاً، مبيناً في كل مطلب من المطالب أهم الهدايات التي تتعلق بهذه الجوانب الثلاثة، مبرزاً أثر تطبيق هذه الهدايات في بناء الحضارة الإنسانية.

ثم ختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج والتوصيات، ثم قمت بعمل فهرس المصادر والمراجع لخدمة البحث.

هذا والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب لنا التوفيق والسداد في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكلمات المفتاحية: **الإصلاح – الحضارة الإنسانية – سورة يوسف عليه السلام.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق وأرسل الرُّسل وأنزل الكتب، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد عليه وعلى آل وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فقد وصف الله تعالى قصّة يوسف – عليه السلام – بأنها أحسن القصص، ولا ريب ففيها من المواعظ والعبر والهدايات ما لا يكاد يوجد في غيرها من قصص الأنبياء عليهم السلام، فالمتأمل فيها يرى أنها قد حوت معانٍ عظيمة، وعبر جليلة، يستفيد منها المؤمن في حياته، ويستضيء بها، فتكون منهج حياة، وومضات في طريق سيره إلى خالقه ومولاه، ففيها بيان عفّة يوسف – عليه السلام – وإيمانه وصبره وكرمه وإحسانه وحسن إدارته وقيادته،

وهذه بلا شك جوانب ينبغي استثمارها والعناية بها واستخراج ما فيها من هدايات يستفيد منها المؤمنون في حياتهم، فيسلكون الطريق المستقيم في سيرهم إلى ربهم جلّ جلاله، ولعل من أهمّ الجوانب التي ينبغي التركيز عليها في قصة يوسف – عليه السلام – واستخراج الهدايات منها هو جانب الإصلاح، وما له من أثر في بناء الحضارة الإنسانية،

ولهذا كان هذا البحث الذي هو بعنوان: **"أثر الإصلاح في بناء الحضارة الإنسانية في ضوء هدايات سورة يوسف "عليه السلام".**

علاقة البحث بمحاور المؤتمر:

يرتبط البحث بعنوان المؤتمر ارتباطاً وثيقاً، كما أنه ينطلق من خلال المحور السادس من محاور المؤتمر الذي هو بعنوان: "الحضارات الإنسانية من خلال هدايات القصص القرآني" حيث يقوم بتسليط الضوء على الهدايات القرآنية المستنبطة من قصة يوسف–عليه السلام–ودورها في بناء الحضارة الإنسانية.

الأهمية العلمية للبحث "الإضافة"":

١. تسليط الضوء على الهدايات القرآنية المؤثرة في بناء الحضارات وعلاج مشكلاتها من خلال القصص القرآني.

٢. استثمار القصص القرآني في استخراج هدايات قرآنية تُعنى بإصلاح أحوال الناس ومجتمعاتهم، وبناؤها بناءً صحيحاً.

أهداف البحث:

١-إبراز الهدايات القرآنية المؤثرة في توجيه الحضارات وعلاج مشكلاتها.

٢-تسليط الضوء على دور القرآن الكريم في بناء الحضارات.

الدراسات السابقة: في حدود علمي وبعد البحث في قوائم المراكز العلمية، وفهارس المكتبات لم أقف على بحث علمي بهذا العنوان،

فكان هذا الموضوع جدير بالبحث، حتى تتجلى مفرداته، وتتضح معالمه، ويكون –بإذن الله – إضافة علمية للمكتبة الإسلامية وطلاب العلم.

المنهجية العلمية المتبعة في البحث: اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وذلك وفق الخطوات التالية:

١. توثيق كل نقطة وفق المنهج العلمي الصحيح.

٢. استيفاء كل نقطة بشكل تام.

٣. التركيز على موضوع البحث مع تجنب التداخل والاستطراد غير المفيد، مع استصحاب محاور المؤتمر وأهدافه المراد تحقيقها.

خطة البحث:

التمهيد، وفيه: أولاً: التعريف بالمصطلحات الواردة في عنوان البحث: (الإصلاح، الحضارة) . **ثانياً:** بين يدي السورة.

المطلب الأول: الإصلاح الديني.

المطلب الثاني: الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي.

المطلب الثالث: الإصلاح القيادي والاقتصادي.

ثم الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد:

أولاً: التعريفات:

أ- **تعريف الإصلاح لغة واصطلاحاً:**

تعريف الإصلاح لغة:

مصدَرُ أصلَح؛ يُقالُ: صلَح يصلُحُ ويَصلَحُ صلاحًا وصُلوحًا. والصَّلاحُ: نقيض الفسادِ، وهو يدُلُّ على إزالةِ الفسادِ. وأصلَح الدَّابَّةَ: أحسَن إليها فصلَحَت، وأصلَح الشَّيءَ بَعدَ فسادِه: أقامه. وأصلَح ما بَينَهم وصالَحهم مُصالَحَةً. (١)

تعريف الإصلاح اصطلاحاً: الإصلاح: التغير إلى استقامة الحال على ما تدعو إليه الحكمة. (٢).

وقيل: هو إزالة الخلل، والفساد الطارئ على الشيء. (٣)

وكلا المعنيين يصلحان للتعريف، ولا شك أنّ العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي علاقة واضحة جليّة.

ب- **تعريف الحضارة لغة واصطلاحاً:**

تعريف الحضارة لغة:

من حضرَ، تقول: حَضْرَةُ الرجل: قُربه وفِناؤه. والحَضْرُ: بلدٌ بإزاء مَسكَن. ويقال: كَلَّمته بَحَضْرَةِ فلانٍ وبِمَحْضَرٍ من فلان، أي بمشهدٍ منه. والحَضَرُ أيضاً: خلاف البَدْو. والمِحْضَرُ: السِجِلُّ. والمحضر: المرجع إلى المياه. والحاضِرُ: خلاف البادي. والحاضِرةُ: خلاف البادية. (٤)

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٣٨٣)، مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/ ٣٠٣)، مادة (صلح) .

(٢) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية (١/ ٢٠٤).

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة لـ عبد الرحمن الجزيري (٥/ ٢١٣).

(٤) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٦٣٢). مادة (حضر).

تعريف الحضارة اصطلاحاً:

عُرّفت الحضارة بعدة تعريفات منها:

«مجموعة الأفكار والمشاعر والأنظمة الّتي تصوغ طريقة العيش في مجتمع من المجتمعات» [١]. **وقيل إنّ الحضارة هي:** عبارة عن استقرار، وإنتاج مادي، ووجود ديني في المجتمع. [٢]

فتبين من خلال التعريفات السابقة: أن مفهوم الحضارة شديد الارتباط بحركة المجتمع، وأن الثقافة تمثل جزءاً من الحضارة، وفي الحقيقة أنّ مفهوم الحضارة لازال الجدل قائماً بين الباحثين للوصول إلى معنى محدد له.

ومما ينبغي الإشارة إليه: أنّ لفظ "الحضارة" جاء في العنوان مضاف إلى لفظ "الإنسانية" (الحضارة الإنسانية)، وهذا المصطلح وليد العصر الحديث، فقد لا يمكن تحقيقه بصورة كاملة على جزئيات الحضارات المتعددة، على الرغم من أن تلك الوحدة قد تستند إلى ميراث إنساني مشترك بين الحضارات يمكن تداوله بما يتناسب مع خصوصيات الشعوب، كما أنها تستند قبل ذلك إلى الفطرة الإنسانية التي تتغذى من صبغة غريزية واحدة، وحاجات مشتركة، وشروط متماثلة.

ثانياً: بين يدي السورة:

١-التعريف بقصة يوسف عليه السلام:

قصة يوسف عليه السلام هي أظل قصة في القرآن الكريم، افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه، ثم ابتدأت القصة بعدها إلى تمام المائة، وخُتمت السورة بأحد عشر آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله تعالى لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين، وإعجاز كتابه الكريم،

(١) نشوء الحضارة الإسلامية، لأحمد القصص (ص: ٢٠).

(٢) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي بن نايف الشحود (٥/ ٣٣٦)

والعبرة بعموم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

٢-الحكمة في عدم تكرار سورة يوسف عليه السلام:

الناظر في قصة يوسف عليه السلام يجد أنها قد جاءت مرة واحدة في كتاب الله تعالى دون تكرار، وهذا بلا شك خلاف المعهود في قصص بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

ومما ذكره العلماء في سبب ذلك أنّ قصة يوسف عليه السلام تحكي لنا جملة من المقدمات ونتائجها، فما كان ينبغي أن يفصل بين المقدمات والنتائج.

يقول برهان الدين البقاعي: " أما هذه القصة فحاصلها فرج بعد شدّة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر، فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه الصلاة والسلام بفقد ابنيه وبصره وشتات بنيه، وامتحن يوسف – عليه الصلاة والسلام – بالجُبّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن، ثم امتحن جميعهم بشمول الضر وقلة ذات اليد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨] ثم تداركهم الله بالفهم وجمع شملهم ورد بصر أبيهم وائتلاف قلوبهم ورفع ما نزع به الشيطان وخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من كيد كاده واكتنافه بالعصمة وبراءته عند الملك والنسوة، وكل ذلك مما أعقبه جميل صبره وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار". (١)

إلى غير ذلك من الحكم التي ذكرها العلماء، ونكتفي بما ورد خشية الإطالة.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١٠/ ١٠).

المطلب الأول: الإصلاح الديني:

لا شّك أن رسالة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قد جعلت الإصلاح مبدأً رئيساً من مبادئها، وذلك في تقويم السلوك الإنساني ونشر عقيدة الطاعة لله وحده لا شريك له، ونبذ كل شكل من أشكال الفساد في الأرض وجعل العمل الصالح منهاجاً للحياة، ولعلّ من أهم جوانب الإصلاح الذي جاء به الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – هو الإصلاح الديني، ويتجلى ذلك من خلال قصة يوسف – عليه السلام – **وبيان ذلك من خلال ما يلي:**

أولاً: توحيد الله تعالى:

المتأمل في سورة يوسف – عليه السلام – يجد أنّ أهم المقاصد التي حوتها السورة هو مقصد تأكيد التوحيد والدفاع عن العقيدة، حيث نجد أن يوسف –عليه السلام– قد دافع عن العقيدة، وأبرز قضية التوحيد بمفهومها الشامل، بما في ذلك توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وقد ركّز على ضرورة إخلاص العبودية لله وحده، مستثمرًا تأويله للرؤى والأحداث المحيطة به لترسيخ مفهوم التوحيد الخالص لله ودحض الآلهة الباطلة.

ولعل من أهم الآيات التي يتجلى فيها هذا المعنى هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ

إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف: ٣٧ – ٤٠] .

حيث بيّن لهم يوسف – عليه السلام – حقيقة ما يعبدون من دون الله تعالى معبوداتهم حيث قال لهم أنكم لا تعبدون مع الله إلا أسماء لا حقيقة لها ولا تتصف بشيء من صفات الألوهية الحقة، ثم بين لهم أنّ الله يحكم بين الناس بحكمته، ومن أحكامه أنه أمر أن لا تعبدوا إلا هو جل وعلا، وهذه العقيدة الصافية هي الدين المستقيم البيّن.

ولذا نجد أن هذه الآيات قد حوت على العديد من الدلالات والهدايات التي تُرشد إلى أهمية توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له جلّ جلاله، **ومن ذلك:**

١- ترشد الآية إلى معنى عظيم ألا وهو أنّ مهمة الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – الأصيلة هي إصلاح الدين، دلّ على ذلك عدول يوسف – عليه السلام – عن إجابتهم لما يريدون معرفته من أمور الدنيا إلى أمور الدين، قال الرازي معللاً عدول يوسف – عليه السلام – عن الجواب بقوله: "فإن الاشتغال بإصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا".(١)

وهكذا ينبغي على كل داعية إلى الله تعالى أن يبدأ بما هو أهم،

ويقدم الفاضل على المفضول في أمور الدعوة، يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله– :" أراد بهذا الجواب أن يفترص إقبالهما عليه وملازمة الحديث معه إذ هما يترقبان تعبيره الرؤيا فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنه يعبر لهما رؤياهما غير بعيد".(٢)؛ ولذا فإن جميع الرسالات جاءت بالدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ ونبذ الشركاء والأنداد، وأن الإيمان بالله جل

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (١٨/ ٤٥٥).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/ ٢٧٠).

وعلا هو الطريق الصحيح، والدين القويم، الذي يسمو بصاحبه، ويعصمه من الفتنة، ويمنعه من الرذيلة، ويورث اليقين والثبات، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف: ٣٨].

٢- ترشد الآية إلى أهمية المسارعة في إصلاح دين الناس ودعوتهم إلى توحيد الله تعالى، فيوسف لما علم من تأويل الرؤيا أنّ أحدهما سوف يُقتل بادر بدعوته إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف: ٣٩ – ٤٠]

قال الإمام الرازي –رحمه الله –:"لعلّه عليه السلام لما عَلِم أنّ ذلك الرَّجل سيُصلب اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتى لا يموت على الكفر، ولا يستوجب العقاب الشديد وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة".(١)

٣- ترشد الآيات إلى أهمية ربط الخلق بالخالق أثناء دعوته إلى دين الله لا بصاحب الدعوة، ونسبة فضل العلم وتعليم الناس إلى لله تعالى دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ ،

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

٤- من الهدايات التي تتضمنها الآيات أنه ينبغي لكل مشتغل بدعوة الناس إلى توحيد الله تعالى أن يسلك طرقاً مناسبة في إيصال دعوته حتى تكون

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (١٨/ ٤٥٥).

دعوته أقرب للقبول، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ فيوسف عليه السلام قبل أن ينتقد دين صاحبي السجن ويبطله، أشعرهما بأن الله الذي سيدعوهما للإيمان به مُنعم متفضّل فقال:

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، ليفتح قلبيهما لما سيقول، لأن الإنسان بطبيعته يحب المحسنين المتفضلين.

٥- ترشد الآيات إلى أهمية استعمال أسلوب التعريض دون التصريح في عند وذلك عند ذكر أخطاء ومثالب المخالفين الذين يريد الداعي دعوتهم إلى توحيد إلى الله تعالى، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ حيث لم يصرّح عليه السلام بأسماء المخالفين من أهل مصر "الذين اتخذوا من دون الله آلهة وهذا معروف في تاريخ مصر"[١] حيث استعمل لفظ "قوم" تعريضاً لا تصريحاً.

كما أنّ الآية تشير إلى معنى آخر متعلق بهذا المعنى ألا وهو أهمية انتقاء الكلمات أثناء دعوة الناس إلى دين الله تعالى، وعدم المواجهة المؤدية إلى النفور كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾.

قال الطاهر بن عاشور: " أراد بهذا أن لا يواجههم بالتشنيع استنزالاً لطائر نفورهم من موعظته. [٢]

كما أنه ينبغي للساعي إلى إصلاح الناس أن يستثمر الأوقات والأماكن المناسبة التي يُرجى أن تكون إجابة المدعو فيها أسرع، كما فعل يوسف – عليه السلام – مع صاحبي السجن.

٦- الإرشاد إلى أنّ من أهم واجبات الدعاة من الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم هو التركيز أثناء دعوة الخلق على إصلاح توحيد الألوهية؛ لأنه

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٢).
(٢) التحرير والتنوير، لان عاشور (١٢/ ٢٧٢).

لا يصح إيمان من أفرد الله بالربوبية ولم يفرده بالألوهية، يفيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فقوم مصر يظهر من الآيات أن عندهم إيمان بربوبية الله تعالى، كما دلّ على ذلك قول النسوة: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٣١]، ومع ذلك ركّز يوسف – عليه السلام– على توحيد الألوهية كما بيّنه قوله تعالى: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

٧- تشير الآية إلى منهج من أهم المناهج التي ينبغي تطبيقها عند دعوة الناس والسعي إلى إصلاحهم وهو منهج ما يُسمى بـ "التخلية قبل التحلية" وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ أَحَبُّ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، حيث "قُدّم ذكرُ تركه لملّتهم على ذكر اتباعه لملة آبائِه — في الآية التي بعدها – لأن التخلية متقدمة على التحلية".(١)

٨- تشير الآيات إلى أنّه ينبغي على الساعي في طريق إصلاح الخلق أن يسخّر كل ما لديه من إمكانات ومميزات في الترغيب إلى دين الله تعالى، وهذا مأخوذ من أنّ يوسف — عليه السلام — لما رأى إعجابهم به بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف: ٣٦] استثمر هذا الإعجاب لترغيبهم في دين الله تعالى، "

فإن الفتيين لما تقرّر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال – وأنه محسن معلم– ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائه، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت".(٢)

كما أنّ الآية تشير إلى أهمية أن يكون الداعية المصلح على درجة عالية من

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٤/ ٢٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (ص: ٣٩٨).

الإحسان والخلق والتقوى، فالقدوة الحسنة لها أثرها البالغ في قبول دعوة الداعي.

كما أنّ المشتغل بإصلاح الناس ينبغي أن لا ينقطع إحسانه مهما كان حاله، فيوسف –عليه السلام– حتى في سجنه كان من المحسنين،

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثانياً: مراقبة الله تعالى:

من أهم جوانب الإصلاح الديني التي أشارت إليه آيات سورة يوسف – عليه السلام – هو جانب مراقبة الله تعالى، ولعل هذا المعنى يتجلّى بصورة واضحة في الآيات التي أشارت إلى حادثة المراودة،

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣].

بين الله تعالى في هذه الآيات الفتنة التي تعرض لها يوسف – عليه السلام – بمراودة امرأة العزيز له في بيتها، حيث اجتهدت بإغلاق كل الأبواب إغلاقاً محكماً، ثم قالت له هلمّ إليّ فقد تهيأت وتجهزت لك،

فردّ عليها يوسف – عليه السلام – بقلب المستشعر لمراقبة الله له، ردّ عليها بالتجائه إلى الله من فتنتها قائلاً معاذ الله،

ثم ذكر نعمة الله عليه – على أحد القولين– ثم بين أن إتيانك وفعل الفاحشة من الظلم العظيم.

ومن خلال تسليط الضوء على هذا الجانب المهم من جوانب الإصلاح الديني وهو مراقبة الله تعالى يمكن أن نستنبط أهم الهدايات المتعلقة **بهذا الجانب فيما يلي:**

١-تشير الآية إلى معنى عظيم وهو أنّ صلاح الدين ينبغي أن يقوم على ركيزة عظيمة ألا وهو مراقبة الله تعالى والتبرؤ من أصحاب الفواحش والمنكرات، أفاده قول يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٢٣]،أي:" أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه، واستجير به منه"(١). فاستعاذ مباشرة من هذا الفعل الشنيع، والتجأ إلى الله تعالى.

٢-تشير الآية إلى أنّ من أهم الأمور الدالة على صلاح الإنسان هو صلاحه في السرّ، فإن صلاح السرّ هو الدليل الصادق على صلاح الإنسان، فـ يوسف – عليه السلام- لما صلح في السرّ زكّاه الله تعالى، وأخلصه له واصطفاه لنبوته ورسالته، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤] ؛ولذا فإن الإنسان لا يحكم بصلاح نفسه حتى ينظر في خلواته، فإن صلح في خلواته فهو فيما سواها أصلح. قال ابن القيم –رحمه الله-: "إن كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب".(٢)

٣-تفيد الآية إلى أنّ التخفّي وعدم استشعار مراقبة الله تعالى عادة العصاة الذين يجتهدون في التخفي من الناس، وينسون أن الله تعالى لا يخفى عليه خافية،وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى:﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾،حيث اجتهدت امرأة العزيز في التخفي من الناس بإغلاق الأبواب، لكنها نسيت مراقبة الله تعالى لها، ومما يدل على الاجتهاد في التخفي قوله: ﴿ وَغَلَّقَتِ ﴾، بالتشديد، قال الطاهر بن عاشور –رحمه الله – : "وتضعيف غلّقت؛ لإفادة شدّة الفعل وقوته، أي أغلقت إغلاقاً

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٢).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم الجوزية (ص: ٢٥٣).

محكماً".[١]

٤-المراقب الله تعالى لا يمكن أن ينخدع بأساليب أهل الباطل وملاطفاتهم له للوقوع به في الشهوات المحرمة، وهذا مأخوذ من قوله تعالى:﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ "ففي المراودة معنى المخادعة؛ لأن الطالب يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه".[٢].

فامرأة العزيز" فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه".[٣] إلا أنّ يوسف – عليه السلام – لما جَعَلَ مراقبة الله تعالى نَصْب عينيه لم ينخدع بمراودة امرأة العزيز له، ولا بتهيأتها نفسها وبيتها عندما قالت: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ بل كان جوابه جواب الذي يستشعر مراقبة الله تعالى له، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

٥-تشير الآية إلى أنّ تذكّر الأسباب الذاتية كمراقبة الله تعالى والخوف منه لا تمنع من تذكر الأسباب الخارجية كالفضيحة عند الناس أو إحسانهم قبل فعل المعصية،"فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] تعليلاً للامتناع ببعض الأسباب الخارجيةِ مما عسى يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيهِ على سببه الذاتي".[٤] قال القاسمي – رحمه الله-: "يجوز ترك القبيح لقبحه، ورعاية حق غيره، وخشية العار، أو الفقر، أو الخوف، ونحو ذلك. ولا يقال: التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح، وأنه لا يثاب".[٥]

٦-تفيد الآية أنّ من أهم الأسباب والعوامل التي تقوي جانب استشعار

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢/ ٢٥٠).
(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للحموي (١/ ٢٤٥).
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (٢/ ٤٥٥).
(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود (٤/ ٢٦٥).
(٥) محاسن التأويل، للقاسمي (٦/ ١٦٦).

مراقبة الله تعالى هو الإخلاص كما في القراءة الأخرى "المخلِصين"، "فقوله:﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤] تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة لئلا ينتقص اصطفاء الله إياه في هذه الشدة على النفس".(١)

٧-تفيد الآية أنّ مراقبة الله تعالى توصل الإنسان إلى أعلى مقامات الكمال، ف يوسف –عليه السلام– لما راقب الله تعالى وامتنع عن الوقوع في الحرام وصل إلى أعظم مقامات الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠] فمن "آثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم [فلا أجهل منه]، ومن آثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة".(٢)

ومما سبق نشير إلى أنّ استثمار هذه الجوانب وتطبيقها في أرض الواقع له أثره الكبير في بناء الحضارة الإنسانية، فمن أهم الركائز التي ينبغي أن تقوم عليها الحضارة الإنسانية هو قيامها على عقيدة صحيحة خالية من التحريف والاختلاق، ولذا نجد أن الهدي القرآني قد ركّز على هذا الجانب –كما مرّ معنا – لما له من أثر مهم في تقويم الفرد والأسرة والمجتمعات التي يترتب على صلاحها صلاح الحضارة الإنسانية.

ويتجلى ذلك بالنظر في دعوة الأنبياء – عليهم السلام– حيث نجد أن أول ما يدعون إليه أقوامهم هو توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك، وذلك يُعدّ أهم أسباب الإصلاح.

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (٦/ ١٦٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٣٩٧).

المطلب الثاني: الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي.

يُعد الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي من أهم مقومات الإصلاح – بعد الإصلاح الديني – وهذا ما نستنتجه من آيات القرآن الكريم، فنجد أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كان أول ما يدعون إليه أقوامهم بعد توحيد الله تعالى هو دعوتهم إلى ما يُصلح أنفسهم ومجتمعاتهم من كريم الأخلاق، وجميل الخصال، وصحيح المعاملات، وكل ما يهديهم إلى الصراط المستقيم في أمور دينهم ودنياهم، فهذا نبي الله شعيب – عليه السلام – أمر قومه أول الأمر بتوحيد الله، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥] ، وهذا إصلاح لما فسد من عقيدة الإيمان، ثم عقّب ذلك بدعوتهم إلى إصلاح أنفسهم ومجتمعهم من فساد المعاملات، وذلك بالحث على عدم بخس الناس أشياءهم وعدم التطفيف في الكيل وعدم الإفساد في الأرض بالجور، والعدول عن نهج العدالة القويم في الأمور كلها بعد أن أصلحها الله بقدرته، ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

ثم حثّهم على إصلاح كل ما يتعلق بحياتهم فبيّن لهم عظم جريمة قطع الطريق وإرهاب الخلق وسلبهم أموالهم لما لذلك من أثر سيء على العباد والمجتمعات وتهديد لحياة الناس وتكافلهم الاجتماعي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٦] .وهذا التدرج في الدعوة هو بلا شك ديدن الأنبياء جميعاً – عليهم الصلاة والسلام –

كما وضحته الآيات السابقة.

وبالنظر إلى سورة يوسف – عليه السلام – نجد أنّ هذا الأمر قد تجلى في آيات السورة، فكما حرص – عليه السلام – على الدعوة إلى توحيد الله تعالى – كما مرّ معنا في المطلب الأول – نجد أن آيات السورة لم تغفل الحديث عن جانباً آخر لا يقل أهمية عن الجانب الأول لما له من أثر في بناء حضارة إنسانية قويمة، ألا وهو جانب الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي.

وفيما يلي ومن خلال قصة يوسف – عليه السلام – سنتطرق إلى أهم الجوانب الأخلاقية التي لها أثراً بالغاً في الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: الصدق والأمانة:

من أعظم مقاصد سورة يوسف عليه السلام هو الدعوة إلى كل هداية، والإبانة لكل ما يوجب الهدى، قال الإمام البقاعي – رحمه الله – "مقصودها وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى".(١)

ولا شك أنّ الصدق والأمانة من أهم ما يوجب الهدى، ولعل من أوضح الآيات –في قصة يوسف – التي توضح ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١] إلى قوله: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٦ – ١٨].

يخبر الله تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما انتهوا من جريمتهم، أتوا بهيئة ماكرة متظاهرين بالبكاء في وقت لا يستطاع التدقيق على ملامح الوجه ليتبين

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١٠/ ١).

صدقها من كذبها وهو الليل، مبررين جريمتهم أنهم ذهبوا في سباق وتركوا يوسف عن متاعهم، ثم قالوا: ونعلم أنك لن تصدقنا ولو كنا أهلاً للتصديق لشدّة محبتك ليوسف عليه السلام وتهمتك لنا.(١)

ومن خلال النظر والتأمل في هذه الآيات يمكن أن نستنبط أهم الهدايات المتعلقة بالإصلاح الأخلاقي المتعلقة بالصدق والأمانة فيما يلي:

١- تفيد الآيات أنّ الصدق عاقبته حميدة، وأنّ الكذب عاقبته وخيمة، وأنّ المجتمع القائم على الكذب والخيانة مصيره إلى الزوال، وهذا يتضح من خلال تسلسل آيات قصة يوسف – عليه السلام – فنجد أن إخوة يوسف وقعوا في الكذب حسداً ليوسف – عليه السلام – من أجل أن يخلُ لهم وجه أبيهم، فأظهره الله تعالى عليهم، وكانت العاقبة له، ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٥] ما "يستلزم نجاته وتمكنه من إخوته لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكن منهم وأمن من شرهم".(٢)

فوعده الله أن له من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصره الله عليهم، ويعليه ويرفع درجته، وسيخبرهم بما فعلوا معه من هذا الصنيع.(٣)

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نهايات القصّة: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠].

كما أن من الهدايات التي أشارت إليها الآيات أنه ينبغي التفطن وعدم الاغترار بأصحاب الكذب والأقوال الباطلة مهما كانت طرقهم وأساليبهم، أفاد ذلك قولهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١] قال أبو السعود –رحمه الله– : "خاطبوه بذلك تحريكاً

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٥٧٨).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣٤).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٤).

لسلسلة النسبِ بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوّة بينهم وبين يوسفَ عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله – عليه السلام – عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحس منهم بأمارات الحسد والبغي".(١)

كما أنه ينبغي عدم تصديق كلّ حلّاف؛ لأن المؤمن قد يحمله صدقه على تصديق من يحلف له ويؤكد كلامه، فإخوة يوسف – عليه السلام – أكدوا حيلتهم بخمس مؤكدات، قال أبو السعود –رحمه الله– : " أكدوا مقالتَهم بأصناف التأكيدِ من إيراد الجملة اسميةً، وتحليتها بـ "إنّ" و"اللام"، وإسنادُ الحفظ إلى كلهم، وتقديمُ "له" على الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم".(٢)

وكذلك ينبغي التفطن أيضاً إلى أنّ كثرة المؤكدات والمبرّرات في الكلام – كما فعل إخوة يوسف – مدعاة للرّيبة، والمريب يظهر أمره في لحن المقال ومباشرة الفعال، أما لحن القول ففي قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ [يوسف: ١٧] وأما مباشرة الفعال ففي قوله: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ [يوسف: ١٨].

ولذا فإن المريب يكاد أن يكشف عن حاله، وصدق من قال:"كاد المريب أن يقول: خذوني".(٣)

٢-تشير الآيات إلى أن الكذب قد يقع بالفعل كما يقع بالقول، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ ﴾ [يوسف: ١٦]، قال الحسن: «آتَوْا أَبَاهُمْ كَذْبَةً آثِمَةً».(٤)

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ٢٥٧).
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ٢٥٧).
(٣) انظر: المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين محمد الأبشيهي (ص: ٣٨).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٠).

ولذلك ينبغي الأخذ على أيدي أصحاب الكذب، وعدم الانخداع بما يظهرونه من أساليب تبرر كذبهم، فالبكاء – على سبيل المثال – ليس علامة لصدق الحديث، قال القرطبي –رحمه الله – : " هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر".(١)

وقد نقل ابن القيم – رحمه الله– عن الشعبي –رحمه الله – قوله: "شهدت شريحًا وجاءته امرأة – تخاصم رجلًا – فأرسلت عينيها وبكت. فقلت: يا أبا أمية، ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة. فقال: يا شعبي، إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاءً يبكون".(٢)

كما أنّ من الخذلان تيسُّر البكاء الكاذب، قال القشيري – رحمه الله– : " تمكين الكذّاب من البكاء سمة خذلان الله تعالى إياه".(٣) ؛ولذا ينبغي التفطن لأصحاب هذه الأساليب، ومحاربة الكذابين، وكشف خدعهم وحيلهم كي ينشأ مجتمع سليم من هذه الآفة الخطيرة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف: ١٨] وهكذا ينبغي أن تكون فراسة المؤمن. قال القرطبي – رحمه الله –: "وأجمعوا على أن يعقوب – عليه السلام – استدل على كذبهم بصحّة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت." (٤) والمدقق في كلام الكاذب يجد فيه تناقض، وعدم انضباط، فإخوة يوسف أخذوه لأجل أن يلعب معهم، ثم أخبروا أبيهم عندما عادوا أنّ الذئب أكله وهو عند المتاع، وهكذا حال الكاذب في كل زمان لا يستطيع أن يُحكِم كذبته

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٤٥).
(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن القيم (١/ ٦٦).
(٣) لطائف الإشارات، للقشيري (٢/ ١٧٣).
(٤) تفسير القرطبي (٩/ ١٥٠).

من جميع النواحي فلابد أن يترك خلفه خيطاً يقود إلى ما يكشف كذبه، ولذا يُقال: "دليل الكذب النسيان". قال البقاعي – رحمه الله –: "الكذب في نفسه لا يخلو من دليل على بطلانه، كما أن المرتاب يكاد يعرب عن نفسه".(١)

٣-تشير الآيات إلى نوع آخر من أنواع الكذب الجامع بين الكذب والبهتان، كالكذب الصادر من امرأة العزيز عندما اتهمت يوسف – عليه السلام – بالسوء ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف: ٢٥] ، وهذا نوع خطير لاسيما وأنه يتعلق بالأعراض، غير آبهة بما يمكن أن يلحق يوسف – عليه السلام – من تبعات. قال الطاهر بن عاشور –رحمه الله –: " وابتدرته بالكلام إمعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيل له أنها على الحق، وأفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها".(٢)

إلا أنه ينبغي الإشارة إلى أنّ الصادق سيُظهر الله صدقه، ويبيّن برهان براءته، وهذا ما حصل مع يوسف – عليه السلام – فقد أظهر الله صدقه، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١].

وأما الجانب الآخر الذي ينبغي مراعاته لبناء حضارة إنسانية قويمة هو "الأمانة"، فلا يخفى أنّ الأمانة تعدّ من أهم ركائز المجتمعات، فبها تستقيم حياة الناس، وبتضييعها تفسد المجتمعات، وتقل الثروات والخيرات، وقد تجلى هذا المعنى في آيات سورة يوسف – عليه السلام – في مواضع متعددة.

منها عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/ ٣١).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٦).

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١].وعند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤] حيث يمكن أن نستنتج من هاتين الآيتين هدايات تبيّن هذا الجانب، وتقوّي **قيمة الأمانة في المجتمعات، من خلال ما يلي:**

١- تفيد الآيات أن تضييع الأمانة وعدم حفظها يترتب عليه مصاعب ومصائب كثيرة، فإخوة يوسف عليه السلام عندما ضيَّعوا أمانة حفظ يوسف المشار إليها بقولهم: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا ﴾ تسبب ذلك في آثار جسيمة، فقد تغرّب الابن عن أبيه أربعين سنة، وتعرّض للسجن ظلماً، ودخل الحزن قلب أبيه حتى فقد بصره من الحزن، وهكذا في كل أمر فمتى ضُيّعت الأمانة أدَّى ذلك إلى ظلم البشر وضياع وخراب المجتمعات، ولذلك قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[(١)] كما أنّ النصيحة تستلزم الأمانة، فادعاء إخوة يوسف النصح ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١] يستلزم منهم الأمانة في حفظ يوسف – عليه السلام – كما قال جلّ وعلا: ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٨] [(٢)]

٢- في الآيات إشارة إلى أن التّحلي بالأخلاق الفاضلة الحميدة والتخلي عن الأخلاق السيئة الذميمة من أعظم أسس التمكين، ومن أكبر مقومات النجاح والفلاح في العاجل والآجل، يتجلى ذلك في أمانة يوسف عليه السلام وصدقه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦]، فالصدق والأمانة طريق التمكين في الأرض.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٤)، باب رفع الأمانة، برقم (٦٤٩٦).

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠/٢٥) .

٣- تفيد الآية إلى أنه ينبغي إسناد الأمر إلى أهله من أهل الصدق والأمانة، فمن عُرف عنه الأمانة فهو أجدر الناس بالقيادة، ففي هذا حفظ للمجتمعات، وصيانة لأموال الناس، وهذا مأخوذ من قول الملك ليوسف: ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤]، فلما تحقق الملك والناس من براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك فلما كلمه أعجبه كلامه وزاد موقعه عنده، فقرّبه وأدناه وكلمه. (١)

وهكذا ينبغي أن يكون الحال، فمن جمع تلك الصفات فهو جدير بكل ثقة، أمين على كل وظيفة، ناجح في كل مهمة، فالأمانة أحد أهمّ شروط الولايات والمناصب، لأن فساد الأمور يكون بإسنادها إلى غير أهلها، وذلك يكثر في آخر الزمان، بل هو من علامات الساعة، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».(٢)

ومما سبق يتبين لنا أن الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي بأنواعه المتعددة يُعدّ من أهم أسس بناء الحضارة الإنسانية الصحيحة؛ لأن الناس بفطرتهم يحبون محاسن الأخلاق، ودرجات الكمال، وتعطيهم أملاً في الوصول للفضائل ؛

ولذا كان من رحمة الله أن يوجد في الناس على مر العصور – حتى في أوقات ضعف الأمة – نماذج تبقى صامدة مجاهدة، تتمثل المثل العليا في أقوالها وأعمالها واعتقاداتها، وهذا بلا شك ينعكس على بناء حضارة إنسانية رصينة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠١).
(٢) سبق تخريجه.

ثانياً: العفّة والحياء:

تعتبر العفّة والحياة من أهم ركائز المجتمعات التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية وتُبنى عليها بناءً صحيحاً واقعيًّا، فإن الإنسان لو كان كائناً عديم الفكر والمشاعر والدوافع والميول، لكان من الممكن تسخيره وتوجيهه، لكنه كائن عجيب التركيب، ففيه الدوافع والميول التي تحرضه لتحقيق مجموعة من المطالب النفسية المادية والمعنوية، لذلك لابد من توجيهه التوجيه الصحيح من أن أجل أن يُسهم في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

وبالنظر إلى آيات سورة يوسف – عليه السلام – نجد أنّ من أبرز أحداثها هي حادثة المراودة، التي ظهر فيها يوسف –عليه السلام – في أسمى درجات العفّة والحياء، والطهر والنقاء، وذلك من خلال الآيات التالية، قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٤].

ففي هذه الآيات بيّن الله تعالى الفتنة التي تعرض لها يوسف – عليه السلام – بمراودة امرأة العزيز له في بيتها، حيث اجتهدت بإغلاق الأبواب إغلاقاً محكماً، ثم دعته إلى نفسها بعد أن تهيأت وتجهزت له، فرد عليها –عليه السلام– بكل طهر ونقاء وثبات قائلاً: معاذ الله، ثم ذكر نعمة الله عليه أو نعمة زوجها الذي أمرها بإكرامه، ثم بين أن إتيان الفاحشة من الظلم العظيم. (١) ؛ ولذا فإن أحداث هذه القصة ترشد إلى هدايات عظيمة تعدّ من أهم الركائز التي تقوم عليها أي حضارة إنسانية، إذا التزم بها الناس صلحوا وصلحت مجتمعاتهم، وإذا ضيّعوها فسدوا وفسدت مجتمعاتهم،

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٤) ، معالم التنزيل للبغوي (٢/٤٨٢).

ولعل من أهم تلك الهدايات ما يلي:

١- ترشد الآيات إلى أهمية العفّة، ووجوب أن تكون ديدن الإنسان في كلّ زمان ومكان، فيوسف – عليه السلام – الطاهر المطهّر لم تغريه غربته وفتنة امرأة العزيز له وتهيئتها للمكان للوقوع في الفاحشة، بل ثبت على مبادئه ودينه، ولم يستسلم لهذه المغريات، ثم قال قول المؤمن الصادق: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٢٣] بل إنه عندما خشي على نفسه من فتنة النساء آثر أن يُسجن على أن يُفتن في دينه، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣] فالتجأ إلى الله تعالى، واعتصم به عن الوقوع في المعصية والخطيئة.

وهكذا ينبغي أن يكون البشر، لتنشأ مجتمعات سليمة من الانحرافات والفواحش، فسلامة المجتمع من الفواحش وحفظ الأعراض مما يهتكها من أهم ركائز الحضارة الإنسانية القويمة.

٢- ترشد الآيات إلى ضرورة التنبه لاجتهاد أهل الباطل وأساليبهم في الإيقاع بأهل الخير في الشهوات المحرمة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ﴾ ما يدل على المعنى، قال الزمخشري:" فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها"(١)

فأهل الباطل لا يفترون في محاولة إيقاع أهل الخير في الفواحش والمنكرات، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ﴾، ففي المراودة ما يوحي بتكرير المحاولة، قال الطاهر بن عاشور- رحمه الله -: "فالمراودة المقتضية تكرير المحاولة بصيغة المفاعلة، والمفاعلة مستعملة في التكرير"(٢).

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٥٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٠).

وهذا يعتبر من أهم تحديات أي حضارة إنسانية في الكشف عن أساليب أهل الباطل التي يسعون من خلالها إلى شق صفّ المجتمعات بنشر الرذيلة والفساد.

٣- ترشد الآيات إلى ضرورة الأخذ بأسباب الوقاية التي تحول دون وقوع الفواحش والرذائل، ومنها:

- الاحتياط ما أمكن إذا اضطر المرء لجلب خادم لبيته للقيام بحوائجه، فلا يتركه يخالط زوجته وأهل بيته.

- التفطن لعِظَم فتنة النساء، فعن النَّبيّ صلَّى اللهُ علَيه وسَلَّمَ قال: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[(١)]، وتزداد فتنة المرأة إذا دعت الرجل إلى نفسها كما فعلت امرأة العزيز، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

- أهمية نصح أهل المعاصي بالتلميح واللطف في الخطاب، فقوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، -على أحد وجهي التفسير- تذكير لامرأة العزيز، وإرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه.[(٢)]

- ضرورة الهرب عن مواطن الفتن والمعاصي والرذائل، أفاده قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٧/ ٨)، باب ما يتقى من شؤم المرأة، برقم (٥٠٩٦).

(٢) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ١٦٥).

المطلب الثالث: الإصلاح القيادي والاقتصادي.

من أهم الجوانب التي تزخر بها سورة يوسف –عليه السلام– هو الجانب المتعلق بالقيادة والاقتصاد، فقد أظهرت آيات السورة ما أبداه يوسف – عليه السلام – في هذين الجانبين المهمين من تميّز، حيث أوضحت كيف بنى يوسف – عليه السلام – خطته المحكمة والمحنكة، وتفسيره للحدث بصورة محكمة أدت إلى إنقاذ البشرية في وقته من المجاعة،

مما جعل هذا درساً مهماً لكل من قام هذا المقام، أو ولي من أمور الناس شيئاً.؛ ولذا فإن سورة يوسف – عليه السلام – تعتبر من أهم الدروس والعبر المستوحاة في الإدارة والاقتصاد، فهي تحمل أبعاداً اقتصادية مهمة في حياة الناس إلى يومنا هذا.

ولا شك أن حسن القيادة وتدبير الاقتصاد هما من أهم ركائز أي حضارة، ينبغي على أي مجتمع من المجتمعات أن يسعى إلى تحقيقهما، بكل الوسائل المشروعة، ولذلك يجب التعاون بين أفراد المجتمع؛ لتحقيق الكمالات المختلفة، سواء كانت جسدية أم نفسية، مادية أم معنوية، والعمل على توفير أسباب السعادة والرفاهية والهناء لكل فرد من أفراد الجماعة، وهذا هو الركن الأساسي للصحّة الحضارية.

فالحضارة فعل إنساني جماعي، لا تنهض به إلا أمة متماسكة، تتعاون للوصول إلى أهدافها السامية التي تنهض بها، دون أنانية أو استئثار،

فالفرد مشحون بغريزة أنانية مستبدّة تنحاز إلى المصلحة الفردية لتحمي ذاتها في مواجهة التحديات المختلفة، فإن إرادة الأنا تصطدم بإرادة الآخر؛ فردًا كان أو جماعة،

وإن من مسؤولية أية فكرة حضارية تحقيق المصالحة والتوازن بين هاتين الإرادتين، وأن تحفّز النزوع الجماعي في الأفراد لتحشدهم في

مشروعها الحضاري[1].

ولعل من أهمّ الآيات التي تشير إلى هذا الجانب، وتعزّز هذا المبدأ قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف: ٤٦] إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤ – ٥٥].

فهذه الآيات تبيّن جانباً مهماً من جوانب الإدارة والقيادة وتدبير الاقتصاد، فحينما رأى الملك الرؤيا طلب من قومه أن يعبروها، فقالوا: أَضْغاثُ أَحْلامٍ وأحاديث نفس، ووساوس شيطان، فقال الَّذي نَجا من صاحبي السجن، وهو الساقي وقد تذكر بعد مدة: أنا أخبركم به بالتلقي عمن عنده علمه، لا من تلقاء نفسي، فابعثوني إلى يوسف، فذهب إلى يوسف – عليه السلام – وطلب منه تعبير رؤيا الملك، فعبرها يوسف – عليه السلام – وكان سبباً في إنقاذهم من المجاعة, فقال الملك: أخرجوه من السجن وأحضروه إليّ لما علم من علمه وفضله، وبراءته مما نسب إليه، وكرم نفسه، وسعة علمه، فلما أتوا به خاطبه الملك وشاهد فضله وحكمته وبراءته، قال له أنت ذو مكانة ومنزل أَمِينٌ مؤتمن على كل شيء. [2]

ومما ينبغي الإشارة إليه أن الخطة الاقتصادية التي أخبر بها يوسف – عليه السلام – قد اشتملت على عدة عناصر مهمة تتحكم في الإنتاج الزراعي تخزيناً وإنتاجاً واستهلاكاً حتى تمر فترة الجفاف والقحط ولا يهلك الناس في

(١) ينظر: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، علي نايف الشحود (١/ ٨)
(٢) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (١٨٢/٦ وما بعدها).

تلك الفترة، وهذا بلا شك يدلّ على حُسن إدارة، وقوة تخطيط للحفاظ على اقتصاد الأمة،

وفيما يلي سنُبرز أهم ما في هذه الآيات من هدايات تؤكد هذه المعاني التي أشرنا إليها، ومن أهمها:

أولاً: ما يتعلق بأمور الإدارة والقيادة:

١- تشير الآيات إلى أهمية أن يوكل الأمر إلى أهله من أهم العلم والفضل والمعرفة، فيوسف عليه السلام لما عَرَفَ منه الملك العلم والحكمة وحسن الإدارة أوكل إليه أمور الاقتصاد في مملكته، ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤] ، قال الطاهر بن عاشور: "مكين أمين صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها".[١] ؛ولذا يجب على كل من أوكلت إليه مهمة من المهام أن يقوم برعايتها، والاهتمام بها، والتخطيط لما يُصلح تلك المهمة على أفضل وجه كما فعل يوسف عليه السلام، قال تعالى:﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: ٤٦] "وصفه بالمبالغة في الصدق، حسبما ذاق أحواله، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه".[٢]

٢- يجب تقديم البطانة الصالحة التي تدل الحاكم على الخير والصلاح وتعينه عليه، والتحذير من بطانة السوء، التي تهدم ولا تبني وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٨).
(٢) محاسن التأويل، للقاسمي (٦/ ١٨٢).

كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى".(١)

٣- يفيد قوله تعالى: ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥] أن القدرة والأمانة شرطان أساسيان للولايات وإدارة المناصب، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٩].

٤- يفيد قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥] أنه يجب على من تعيّن عليه القيام بإدارة أمر من الأمور، ولم يوجد من يصلح له غيره فإنه يتعيّن عليه القيام بهذا الأمر، حتى لا تضيع مصالح العباد.

٥- تشير الآيات إلى أنه ينبغي على كل من تصدر لأمر من الأمور أن يتسلَّح بسلاح العلم، فهو خير سلاح، ويحذر من التصدّر للناس على جهل، فالعلم سبب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، أفاده قوله تعالى: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥] أي: "كاتبٌ حاسبٌ".(٢)؛ ولذا نجد أن "الله تعالى أفرد يوسف – عليه السلام- من بين أشكاله بشيئين: بحسن الخِلْقَة وبزيادة العلم فكان جماله سبب بلائه، وصار علمه سبب نجاته، لتعلم مزيّة العلم على غيره".(٣) فالعلم خير لصاحبه في الدنيا والآخرة، "فإذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب العقبى".(٤)

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٩/ ٧٧)، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، برقم (٧١٩٨).
(٢) الوجيز للواحدي (ص: ٥٥١).
(٣) لطائف الإشارات للقشيري (٢/ ١٨٧).
(٤) نفس المصدر (٢/ ١٨٨).

٦- تشير الآية أنه ينبغي تقدير أهل العلم وأصحاب الخبرة وذوي الموهبة والقيادة والاختراع، والقيام بما يجب لهم من الاحترام والتقدير والتوقير، وتقديمهم على غيرهم، ومخاطبتهم بما يليق بهم، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: ٤٦] حيث ناداه بما يستحقه من ألقاب فقال: ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ "اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين".(١) ولذلك نجد أن من أهم علامات المجتمعات المتحضرة هي تقدير علماءهم، وإنزالهم المكانة التي تليق بهم، وتقديم الأجدر في كل عمل من الأعمال التي تقوم عليها تلك الحضارة.

ثانياً: ما يتعلق بالأمور الاقتصادية:

ترشد الآيات إلى أهم الأسس التي تساعد في بناء المجتمع بناءً اقتصادياً محكماً، وهي كما يلي:

١- أهمية الاستمرار في تطبيق الخطط وتنفيذها على أرض الواقع دون انقطاع، أفاده قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [يوسف: ٤٧] قال الماوردي –رحمه الله –: "يعني تباعاً متوالية".(٢) لأن الانقطاع في تطبيق الخطط الاقتصادية لا يعطي النتائج المرجوّة.

٢- يجب عند وقوع الأزمات أن يتعاون الناس جميعاً بكل إمكاناتهم في مواجهة تلك الأزمة، وهذا مستفاد من صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾. فالعمل الجماعي أكثر نفعاً، كما أن الآية تشير إلى أهمية الزراعة في حفظ الاقتصاد وتحقيق الأمن الغذائي، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾.

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٤).
(٢) النكت والعيون للماوردي (٣/ ٤٤).

٣- أهمية مراعاة أحوال الاقتصاد إنفاقاً وادخاراً حسب الأزمنة والأمكنة، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقد ثبت عن عمر –رضي الله عنه – «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ».(١)

٤- يجب عند وقوع الأزمات أو توقعها ادخار المال إلا ما دعت الحاجة إلى إنفاقه، قال تعالى: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف: ٤٧] أي: "دبّروا أكلكم في هذه السنين الخصبة،

وليكن قليلاً ليكثر ما تدّخرون ويعظم نفعه ووقعه" (٢)؛ لأن الأزمات إذا وقعت تُفني الأموال والأرزاق، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٤٨].

٥- ضرورة أن يكون للدولة خزانة تُجمع فيها الأموال، ويتم إدارتها بحكمة واقتدار، بحيث تُعرف مواردها ومصارفها بطريقة دقيقة تحفظ بها أموال الدولة وعصب حياتها، ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥].

٦- جواز احتكار الطعام في بعض الأوقات حسب المصلحة التي يراها الإمام، قال تعالى: ﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف: ٤٨] ،

أي: مما تحبسون لتزرعوا، وهذا يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.(٣)

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٧/ ٦٣)، كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله، برقم (٥٣٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٠٠).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٠٤).

٧- أهمية تقسيم الخطة الاقتصادية إلى مراحل من أجل تحقيقها، كما فعل يوسف عليه السلام، حيث قسم خطته إلى ثلاثة مراحل، فجعل **المرحلة الأولى** زراعة متواصلة بجد واجتهاد لمدة سبع سنوات ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا** ﴾ [يوسف: ٤٧] ، **والمرحلة الثانية** سبع سنوات فيها العجز في الموارد المالية بسبب السنوات العجاف فتستعمل الحكمة بالإنفاق والادخار ﴿ **فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾** ﴾ [يوسف: ٤٧] ، **والمرحلة الثالثة** ستتحقق الرؤية ويأتي عام فيه الرخاء والاستقرار ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾** ﴾ [يوسف: ٤٩]

ومما سبق من هدايات يتبين لنا أن إصلاح هذه الجوانب الثلاثة – القيادة والإدارة والاقتصاد – يسهم في بناء حضارة إنسانية متزنة وقوية، فالحضارة الرصينة القويمة تنتقل بالناس، وتأخذ بأيديهم، وتدفعهم للارتقاء في درجاتها بكل ما يستطيعون لبلوغ درجة التقدم والرقي الحضاريين، وإهمال هذه الجوانب تجعل البشرية يطول أمدهم في الهمجية والانحراف والشتات والضعف.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن الإسلام قد دعا أفراده إلى كل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، حيث دعاهم إلى إعمار الأرض بالعمل الإنساني الذي يقوم على التطوير والتحسين والابتكار والتنافس وتحمل المسؤولية، لإحراز السبق في شتى الميادين الحضارية.

والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أما بعد:

فقد انتهى بحمد الله العمل في هذا البحث، وأسأل الله سبحانه أن يمنَّ عليَّ وعلى كل قارئ له بالرحمة والمغفرة، والتوفيق والتسديد في الدنيا والآخرة.

وقبل الختام سأذكر بإيجاز أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في هذه الرحلة المباركة مع هذا البحث، وهي:

أولاً: النتائج:

١- ظهر من خلال البحث أن آيات سورة يوسف – عليه السلام – قد اشتملت على أهم أسس إصلاح الحضارة الإنسانية.

٢- ظهر من خلال البحث أن أهم مقومات أي حضارة هو وجود مرجعية عقدية ترتكز إليها تلك الحضارة، ولا شك أن عقيدة التوحيد وإفراد الله تعالى الذي بيده مقاليد السماوات والأرض بالعبادة هي المرتكز الصحيح لأي تقدم وخير في الدنيا والآخرة.

٣- العفّة والحياة هما جوهرا الحياة الحقيقية الطاهرة لأي حضارة إنسانية، فبهما تُحفظ الأعراض، وتُصان الأنساب، ويمتاز بهما المجتمع عن البهيمية، ولذا فإن ظهور الفواحش في أي قوم من الأقوام هو علامة هلاك ذلك المجتمع وانهياره.

٤- تقوم الحضارة الإنسانية وتنهض وتسود إذا تولى زمام أمرها المخلصين من أبنائها الذين يتميزون بصفات القيادة الناجحة، والأمانة الصادقة، والهمّة العالية.

٥- ظهر من خلال البحث أهمية وضع الخطط الاقتصادية التي تقوم عليها الدول، من حيث توزيع الدخل وتأمينه للمجتمعات لكي يعيشوا بسلام وأمان.

ثانياً: التوصيات:

- تحتوي آيات سورة يوسف - عليه السلام - على موضوعات متعددة في جوانب مختلفة تصلح للباحثين فلا تكاد تخلو آية من موضوع يصلح للبحث

المصادر والمراجع

القرآن الكريم (جل منزله وعلا).

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تأليف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، عام ١٩٨٤م.

٣. تفسير القرآن الحكيم، تأليف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٠م.

٤. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تأليف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.

٥. تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٦. التفسير الكبير، تأليف: أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٨. جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

٩. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠. الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية — القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تاليف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين — بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

١٢. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.

١٣. الفقه على المذاهب الأربعة، تأليف: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (المتوفى: ١٣٦٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تأليف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.

١٥. لطائف الإشارات، تأليف: عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك

القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

١٦. محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

١٧. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تأليف: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

١٨. المستطرف في كل فن مستطرف، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

١٩. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

٢٠. معالم التنزيل في تفسير القرآن، تأليف: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ.

٢١. معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، تأليف: د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، مدرس أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون – جامعة الأزهر، الناشر: دار الفضيلة.

٢٢. معجم مقاييس اللغة، تأليف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي،

أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢٤. النكت والعيون، تأليف: أبو الحسن علي بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

٢٥. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.